مشكلات الفلسفة :

فكـــرة الله

للأستاذ عبد الفتاح الديدي

« ليس كمثله شيء »
قرآن مجيد

كتب الكثيرون في هذا الموضوع ، وتناولوه من نواحيه المتعددة بحيث لم تبق لنا بقية نحكيها ولا فضلة نذكرها . وإذا كنت أمسك بالقلم الآن لأخط هذه الكلمات فليس ذلك عن عمد لهؤلاء الذين تعرضوا لفكرة الله قبيل الآن ، بالبحث والدرس ؛ وإنما أفعل هذا عن إيمان بأنني سوف أنظر إلى الموضوع نظرة عكسية ، وأنني سأنصرف إلى جانب آخر غير الذي اهتموا به ، وبذلوا عنايتهم من أجله . وأحب أن أرفع الخوف عن القارئ من إثارة هذا الموضوع مرة أخرى ، وأود أن أزيل عن نفسه كل حرج أو إشفاق من مواجهة مسألة الألوهية مواجهة صريحة فأنبئه مسرعاً بأنني سأبحث الآن مشكلة الإنسان ذاته . وستجد نفسك قادراً — بعد توضيح بسيط — على أن ترفع هذا العنوان لتضع بدلا منه عنواناً آخر يتصل بالإنسان ومشاعره فوق الأرض وبإحساساته في الحياة . إذ أنني أومن تماما بأن فكرة الله ، كما حملها إلينا تاريخ الفلسفة ، لا تصور الله ولا تقرّب مفهومه من أذهاننا ، وإنما تعطينا فكرة صحيحة عن الإنسان نفسه من حيث مطامعه وشهواته وخواطره وآرائه ومخاوفه وملاذه .

فكرة الله عند الفلاسفة والمفكرين هي كتاب حافل بأحاسيس البشر وتاريخ ثابت لانفعالات الناس وسجل مشحون بالعواطف والمشاعر عند ما تطورت على مر العصور . والحقيقة الإنسانية تتكشف ، أكثر ما تتكشف ، من مراجعة هذا السجل الحاشد ومن تأمل هذه الخطرات الوافرة . فليس يفيدك تأمل الأفعال العادية التي تأتيها الجماعات أو النظر في أمور معاشهم والمخالطة لهم في الحياة العامة بقدر ما يفيدك التفكير في هذه الصور التي يعرضها عليك المفكرون عند تدرجهم لصفات الله وتحقيقهم لمشكلة وجوده .

وقديماً تنبه إكسانوفان لهذه الحقيقة على نحو بسيط عند ما قال إن الإنسان يصور نفسه في آلهته ، وإن هذه الأرباب من صنع الناس وابتكارهم . ولم يكن أمام إكسانوفان — الفيلسوف اليوناني — عندئذ غير هذه الآلهة التي صوّرها الشعراء السابقون على عصره كأمثلة يقدمها لنا تدليلا على هذه الحقيقة . أما نحن فنستطيع أن نجد كثيراً من البراهين ، على ما نذهب إليه ، من آراء الفلاسفة واعتقاداتهم في الله منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا.

فإذا ما أخذنا إله أرسطو — على سبيل المثال — وجدنا أنفسنا بإزاء كائن أبدي يوصف بأنه جوهر وأنه فعل محض وأنه يحرك ولا يتحرك . وهذه الصفات هي الوجه الآخر لما نلاحظه في حياتنا الأرضية من سمات الأشياء وخصائصها . فأبدية الله إنما تنشأ عن رغبتنا نحن البشر في تصور موضوع ، ونتيجة لأطماعنا التي لا حد لها في معاش يستمر بنا إلى ما لا نهاية . إذ أننا نحس في قرارة أنفسنا بأننا عاجزون أمام مظاهر الطبيعة وعوامل الفناء التي تعمل بكل قوتها على إنهاء الحياة المتمثلة في الأفراد ، وعلى إبطال ما يبدو وأننا نستمتع به من متاع الوجود . ولابد — والأمر كذلك — من تصور موضوعية أخرى غير إنسانية توصف بهذا الوصف الذي حرمتنا إياه الحياة وتتعلق بها تلك الكيفيات التي نحلم بتطبيقها على شئوننا الخاصة . فالوجود الأبدي الخالد هو الوجه الآخر لهذه الحياة التي نستشعر بأنها قد وُجدت منذ زمن قريب ولا نعرف مبدأها على وجه ثابت ، وهو الوضع المقابل لهذه المظاهر المتغيرة والأعراض الزائلة والحركة الدائمة .

ولا نستطيع أن نفسر صفات الله عند أرسطو إلا على ضوء هذه الحقيقة التي نعلنها إعلاناً صريحاً ونؤكدها توكيداً قاطعاً هنا . فالإله — كما نعلم — عبارة عن فكر خالص يتأمل ذاته ولا يمكن أن يكون هناك شيء آخر سوى ذاته كموضوع لتأمله ما دام شرف التفكير متوقفاً على شرف المادة ، وما دام من الصعب أن نقر رفعة العمليات العقلية من غير الوثوق برفعة الأشياء التي تكون محل اهتمامه . بل إن لذته القصوى إنما تكمن في هذه الحالة التي يستطيع بها أن يدور حول نفسه وأن يكون هو ذاته لذاته موضوعاً لا يفرغ من تأمله ولا يني عن التفكير فيه . وهو لهذا السبب مشغول عن الحياة ، لاه عما يجري فوق الأرض ، مهمل لأحداث الكون .

فهذا الإله ، إن صح أنه إله ، وليد اختراع عبقري ولا يمكن أن يصدر عن تصور آخر غير تصور الإنسان الذي يكاد بالبحث ويولع بالنظر العقلي الخالص . لقد كانت الحياة بتتابعها ومضايقاتها تثير جانب الخيال — قبل كل شيء — في عقل أرسطو وتدفعه دفعا إلى افتراض وجود كائن يخلو من هذه الشواغل الوقتية وينصرف عن الحياة العادية إلى العمل الفكري المجرد . أو يمكن أن نقول إن الحياة الفكرية بما كان لها من مقام في نفس الشعب اليوناني القديم استطاعت أن تدفع بأرسطو دفعاً إلى مذهبه الغريب وتصوره الشاذ . ومن ناحية ثالثة نلاحظ أنه من السهل جداً تصور إله على هذا النحو إذ تكرر وقوعنا في الأزمات وتعددت في سبيلنا العقبات دون أن ينقذنا منقذ ويثير أن يسيننا معين ، مهما رجوناه والتجأنا إليه ودعوناه مخلصين . فالإنسان يتصور الإله محبا للخير عادة ويفترض أنه يعمل جاهداً في سبيل السعادة والهناء . ولا شيء غير ذلك . فإذا حصل أن أتجه الإنسان اتجاهاً سليما ، وأن سعى مسعى كريما ، ثم ناله من وراء ذلك سوء وأصابه من جرائه نكر ارتد إلى رشده وعاود تفكيره وجعل ينظر مرة أخرى في شأن الإله العلي القدير . وهو في تلك الحالة إما أن ينكر وجود الإله ، وإما أن يؤمن بأنه موجود ولكن لا تربطه صلة بالعالم الأرضي ولا يشغل باله من أمره شيء ولا يحتل في ذهنه أية مكانة . وهذا الموقف الأخير هو الذي ركن إليه ارسطو كما شاهدناه في كلامه عن صفات الإله .

ولو قمنا باستعراض هذه الفكرة — فكرة الإله — لدى الفلاسفة جميعا لانتهينا إلى النتيجة التي أعلناها من قبل والتي قلنا فيها إن الإنسان قد عكس خيالاته وأسقط أحلامه وأمانيه على النحو الذي اعتقدناه حسب ميولنا الفلسفية واتجاهاتنا الدينية . والإنسان معذور بطبيعة الحال عندما يفعل ذلك ويقدم على عمله بالشكل الذي وصفناه . ويمكن أن نضع سببين معقولين لحدوث هذه الظاهرة في تاريخ الفكر .

أعتقد بأنه لاحيلة للانسان — أولا — بإزاء الصفات التي ينسبها إلى الإله مادام لايملك غير هذه الصفات التي توجد بين يديه وتتوفر لديه . إن الصفات والكيفيات التي يدركها العقل الآدمي معروفة ومتناهية ولا يمكن الخروج عن نطاقها وابتكار سواها مما لا تعرفه الحواس ولا تتصوره العقول . إنا شركت مثلا في عد ألوان الأشياء وأحجامها وهيئاتها فلن تستمر طويلا بل سريعا ما سوف تحس بأنك قد انتهيت من الحسابات والتقدير . وإذا أردت أن تعمل عقلك في مسألة ما أو شئت أن تخضع لتفكيرك أمراً من الأمور فلن تزيد — إذا اعتمدت بوصفه — حرفا واحدا على هذه الكيفيات والشبات .

أما السبب الثاني في حدوث هذه الظاهرة فأحسبه ناشئاً من طبيعتنا نحن البشر في صبغ كل شيء بميولنا ، وعجزنا عن التخلص من أهوائنا ، وعدم قدرتنا على التفكير تفكيراً بريئاً من دوافعنا الباطنية مستقلا عن شخصياتنا . إن الأشياء في ذواتها لا وجود لها قط في حياة الإنسان ، والمعرفة الموضوعية التي تتعلق بالأشياء الخارجية لم تعرف الحياة يوما من الأيام ، ومهما تحدث العلماء عن علم نقي خال من آثار الإنسان وأهواء البشر فلن يجدي شيء من هذا الادعاء في تخفيف أو محو ماتلقيه الذاتية من ظلال على معامل التجربة ، وسوف تبقى نتائج الطبيعة خاضعة للمزاج والإرادة إلى أقصى درجة .

فهناك حقا لا شك فيه وهو أننا نعتمد على أنفسنا اعتماداً كبيراً في استقائنا للمعلومات من العالم الخارجي وتصورنا للأشياء التي لا تدخل في نطاق التجارب العادية بالنسبة إلى الإنسان . ومن ثم وجب أن نصطبغ كل مادة لتفكيرنا ، وكل موضوع لأعمالنا ، بقوانا الذهنية في التخيل والإدراك وبنوازعنا النفسية في الهوى والجنوح . أو قل أنه ما من شيء من الأشياء يستطيع أن يتقرر في الذهن وأن يتحقق في دائرة معارف الإنسان من غير أن يمر بالنفس التي تعده الإعداد الكافي وتنقحه التنقيح الواجب . ولا تغرنك ادعاءات الرجال الذين يشتغلون بالعلم في هذا الباب لأن أقوالهم لا تصدق ولا تستحق الاحترام إلا من جهة واحدة حينما ننظر إليها على أنها ضرب من الحلم أو التمني البريء .

وكذلك الأمر في مسألة الإله ؛ فنحن حيارى وسط مظاهر الحياة وبين جدران الطبيعة التي تظلنا من كل جانب ، ونبدو أمام أنفسنا كالتائهين الذين يتطلعون إلى السحب القاتمة عسى أن تبرق ، وإلى الآفاق المدلهمة عسى أن تضيء . ومهما تبدت لنا دلائل الإعجاز من حولنا أو تكشفت لأعيننا حقائق الباطن المستور فإننا لا نكاد نتخلص من الحيرة ولا ننتهي من الشك ولا نقف عند حد

من حدود الإرجاف والتخمين . وذلك لرغبتنا فى برهان من الواقع المحسوس وميلنا إلى الوقوف على كل ما يمكن أن يكون هنالك سافراً مفضوحا . ولكن الحقيقة لا تتكشف والباطن لا يبين والقلق لا ينتهى .. فلنفكر إذاً ولنُعمِل عقولنا ولنوجد نحن المشكلة ولنضعها فى الصحائف والكتب على النحو الذى نريد .

وهكذا انتهينا إلى تصور الله وتخيله ، وشبهناه وقربناه ، فكانت آراؤنا من قبيل الأمنية ، وكانت أفكارنا ضرباً من الأحلام ، ولا يستطيع واحد من الناس أن يزعم أن الإله الذى قدره هو نفسه الإله المشرف على نظام الكون والمدبر لأمور الناس . ولا يملك واحد من الناس المقدرة على إثبات التطابق بين الإله الذى وصفه والإله الموجود وجوداً قطعياً . فالله هو الله ؛ أما آلهتنا التى نصفها فهى من قبيل المحاولات التى يجوز أن تتجه اتجاها صحيحا ، ويجوز فى الوقت نفسه ألا يكون لها أى سند من الواقع أو أى تقريب معقول .

فالآلهة التى نتحدث عنها والتى نصف أفعالها إنما هى صدى لحياتنا العملية بما فيها من نقص واضطراب . فالله يدفع المرض لأننا نمرض ، ولو لم يكن المرض من لوازم حياتنا المعيشية لما تصورنا الله قادراً على شفاء الناس من الأمراض . والله هو السبب فى المكاسب والخيرات ، وهو الذى يهدى الناس إلى سبيلهم ويطعمهم ويسقيهم . وبعبارة موجزة : يأتى الله كل الأعمال الوظيفية التى لا تعدو أن تكون ضمن المطالب العادية . وكلما فكرنا فى الله وصفاته لم نستطع أن نخرج به عن هذا الحيز الضيق وعن هذا النطاق المحصور ، لماذا ؟ لأن الأرض مسرح لها ولأن حياة الناس ملأى بهذه الأشياء التى ترضيهم أحيانا وتسوءهم أكثر الأحيان .

فالله الذى نعترف به ونقر بوجوده ونسلم بسلطانه أسير حياتنا الدنيوية ويمكن وصفه بأنه إله إنسانى — إن صح هذا التعبير — مرَّ بالعقول قبل أن تؤمن به الصدور ، وامتحنه الخيال قبل أن تسلم به الروح ، واستأثرت به المصلحة قبل أن ينفذ إلى عالم الضمائر . ولذلك نستطيع أن نجد فيه مشكلتنا نحن أنفسنا لا مشكلة الله ، ونستطيع أن نلمس فيه ضعفنا بارزاً وأن نجد عنده آلامنا واضحة وأن نصادف على وجهه مسحة الهم البشرى .

قال سارتر عندما كتب عن قصة ضياء أغسطس لفولكنيه : « تصير القصص الجيدة — من بعيد قليل — شبيهة تماما بالظاهرات الطبيعية . إننا ننسى أن لها مؤلفاً وننظر إليها نظرتنا إلى الأحجار والأشجار لأنها هنالك ، ولأنها موجودة . » ونستطيع أن نقول عن الذين يتحدثون عن صفات الله إن كلامهم يصير بمضى الزمن حقيقة راسخة فى نفوسنا وننظر إلى أحكامهم على أنها أمور مقطوع بها وننسى غالباً هؤلاء الذين صدرت عنهم وبدرت منهم فى ظرف من الظروف . والغريب فى هذه المسألة هو أننا نأخذ كلامهم مأخذ الجد ونخضع أنظارهم للبحث والنقد ونجعل منها بعد حين موضوعا للجدل والنقاش . هذا مع أننا نستطيع من أول الأمر أن نريح أنفسنا بأن نفرق بين أهوائنا وبين الوقائع الصحيحة ، وبين ما نريده نحن وبين ما هو حاصل بالفعل .

فالإنسان لا يملك إلا أن يفكر وأن يقدح ذهنه فى مسائل الكون التى تشغل باله وتقلل من راحته وهدوئه . وهذا طبيعى ومقبول منه إذا لم يأت بعد ذلك ليصف لنا أشياء ، لم يطلع عليها ولم تتكشف له ، وصف الشاهد الخبير . وحتى هذا العمل الوصفى معقول ومقبول ، على ألا يأتى بعد ذلك إنسان فيتحدث عنها كما لو كان يتحدث عن الحقائق المقررة .

ونعود ثانية لنقول إن الله أرفع شأناً وأسمى مقاما من أن نخضعه لأحكامنا ومن أن يتحدد بأهوائنا ويتوقف شكله على أمورنا المعيشية . وأى وصف نلصقه به وأية كيفية نلحقها بذاته لا تخرج عن كونها تخمينا لا يرتفع إلى درجة اليقين ولا يوثق به الوثوق الكامل . أما إذا أخذنا مسألة الصفات على حقيقتها ونظرنا فيها على أنها مشكلتنا نحن البشر فأغلب الظن أننا سنبلغ أمراً على قدر كبير من الأهمية من ناحية التحليل الخاص بالعواطف الإنسانية والتسجيل الدقيق لخواطر الناس والإحساسات التى تعم بنى آدم فوق الأرض . وذلك لأننا أقرب إلى أنفسنا عندما نتحدث عن الله منا إلى الله ، وأشد ارتباطا بقلوبنا وأوضاعنا فى تلك الآونة منا إلى ملكوت السماء ، وأكثر حباً لمصالحنا وأهوائنا منا لهدى الله ورضوانه .

أيها الإنسان ! ثب لرشدك وعد إلى نفسك وانفض غبار النفاق عن جبينك لتعلم أن الرب أعظم من أن يلحقه وصف ، وأرفع من أن تبلغه كيفية ، وأسمى من أن يلابس المقادير وماجريات الأمور على أرض دنستها بريائك ، ووسمتها بلحم آبائك .

عبد الفتاح الديدى